البحث الثالث

مهنة الصياغة (معلومات مفيدة)

لقد برع الصابئة المندائيون في مهنة صياغة الذهب والفضة والمينا، وأصبحوا من أدق الاختصاصيين فيها، ولقد طوروها كثيرًا وتفننوا بها...

ففي بداية الأمر كان الصابئة المندائيون صناع زوارق وحرفيين في الحدادة والنجارة، وهذه المهارة طوروها مع الوقت لصناعة المعادن النفيسة التي كان السومريون سباقين في صناعتها، وتدل الآثار السومرية على مهارة الصاغة السومريين في صياغة الحلي الذهبية للملكات والأميرات والأغنياء.

يُقسِّم الصاغة المندائيون فن الصياغة إلى قسمين أساسيين، الأول: فن النقش، وهذا الفن اشتهر به عدد قليل من الصاغة لأنه يتطلب مهارة عالية ومطاولة ودقة، والنقاشون يجب أن يجيدوا فن الرسم والخط والقراءة والكتابة.

وهؤلاء النقاشون المهرة ينقشون الأسماء والصور والمناظر والزخرفة والطيور وغيرها، ويعطوها رونقًا وبهاءً، وأحيانًا يلونوها بالميناء السوداء أو الملونة التي يصنعونها بأيديهم، ويحتفظون بأسرار تركيبها ويتوارثونه أب عن جد إلى ولد، ولا يبوحون بهذا السر لأحد، لكونه سر المهنة.

يصنعون أقلام النقش بأيديهم ويعطونها صلابة بالنار والزيت، أو النار والكحول، ويشحذوها بطرق فنية يتمرسون بها، وهناك صاغة برعوا في هذا المضمار وخلدوا أسماءهم لدقة صناعتهم.

أما القسم الثاني فهو فن الشفت: والشفت يعني الملقط الخاص بفن الصياغة، وهذا الفن له أساتذته ورواده وليس بالضرورة أن يكون العامل الماهر في هذا الفن يجيد القراءة والكتابة، أو الخط والرسم، وإنما بالممارسة المستمرة يكتسب

الخبرة والمهارة العالية ، وهذا الشفت على صغره ولكنه يصنع العجائب ، ويتدخل في صنع أدق وأرق الحلي الذهبية.

لقد ازدهرت صناعة الفضة والمينا السوداء بعد الحرب العالمية الأولى ، ودخول الجيوش الغازية العراق من مدينة البصرة ، كذلك السفن التجارية العديدة، من ميناء الفاو والمعقل وحبهم للصناعات اليدوية ما خف وزنه وغلى ثمنه ، ورخص الأيدي العاملة ، راجت صناعة الفضة وخاصة أدوات المائدة ومناظر للآثار العراقية مثل أسد بابل والملوية والزقورة والنخلة والقيثارة ومسلة حمورابي والثور المجنح وغيرها على هيئة أساور ومداليات ومناظر.

لقد انتعشت ماديًا فئة من الصاغة ، وخاصة في مدينة البصرة وأصبحوا من أغنياء القوم لكثرة روادهم من الأجانب ، وتعلم الصاغة لغات عديدة ليحاكوا بها زبائنهم ويتعاملوا معهم بسهولة ويسر.

وفي الحرب العالمية الثانية تطورت مهنة صياغة الفضة والمينا تطورًا كبيرًا ، وبرز صاغة كبار ومحلات صياغة لها اسمها وإنتاجها ، وأصبح لهذه المحلات باعة يأخذون البضاعة ويعرضونها على المراكب العملاقة الراسية في الموانى لترويج بضاعتهم ، وكان هذا يتطلب إجازة خاصة تمنح بالواسطة أو دفع مبالغ معينة للمسئولين عن الموانئ.

والفضة أنواع حسب درجة نقاوتها ، فهناك الفضة الكبابة ونقاوتها عالية جدًا تصل إلى ٩٩٩ ، وتكون عادة طرية وصعوبة شغلها ، ولذلك تعتبر الفضة عيار ٩٢٥ أحسن نوع يمكن تشكيل منه الحلي بأنواعها على أحسن ما يمكن.

ولغرض فحص الفضة تستخدم الطريقة القديمة ، وذلك ببرد جزء بسيط من الحلية بالمبرد ، ووضع مادة التيزاب عليها (حامض النتريك) ، فيجب ألا يتغير لونها أبدًا ، وعندما تضع قطرة ماء على هذا المكان تلبن ، أي تصبح مادة الفحص بلون اللبن ، فيستدل الصائغ على نقاء الفضة ويدفع فيها ثمن جيد.

إما إذا كان عيارها أقل من ذلك فيسوَّد المكان المبرود بمجرد ملامسة التيزاب له، وإذا كانت أقل من عيار ٥٠٠؛ فيتحول اللون إلى الأخضر، وأقل من ذلك هذا اللون الأخضر ينتج منه دخانًا ويتفاعل مع الفضة ويؤثر فيها.

كل ذلك يأتي من خلال الخبرة العالية بالممارسة ودقة الفحص، ولهذا تجد الصاغة المتمرسون في صناعة الفضة من السهولة بالنظر أن يميز بين الفضة وغيرها من المعادن البيضاء، بسهولة كذلك يتمكن من التمييز في معرفة نقاء الفضة دون فحصها أحيانًا.

وبشكل عام فإن صاغة الفضة ممكن أن يتحولوا إلى صاغة ذهب، لأن الفن واحد والمهارة هي المعيار، ولكن للذهب خواصه وعياراته التي تختلف عن الفضة، والأهم غلاء الذهب مقارنة بسعر الفضة، ولهذا صائغ الذهب يجب أن يكون أكثر دقة وأكثر حرصًا للمحافظة على الذهب في السباكة والعمل من أي نقص إلا اضطررًا، لأن النقص يسبب له خسارة قد لا تستطيع الأجور التي يتقاضاها تعويضها.

وللذهب عدة عيارات، فالتيزاب كما يسمونه أو اللوح أو سبائك البنك المركزي عيارها ٩٩٩، أي في الجرام الواحد مثلاً ٠,٩٩٩ ذهب نقي، و٠,٠٠١ نحاس، وعيار ٢٢ نسبته ٩١٦، وعيار ٢١ نسبته ٨٧٥، وعيار ١٨ نسبته ٧٥٠، وعيار ١٤ نسبته ٥٨٥، وعيار ١٢ نسبته ٥٠٠، وعيار ٩ نسبته ٣٣٣، وهذا يعتبر أقل عيار بينما ٩٩٩ أعلى عيار.

وهناك طرق عديدة لفحص نقاوة الذهب، منها قديمة ومنها حديثة، والصائغ المتمرس يعرف عيار الذهب من النظر إليه أو من مسكه بيده، لأنه يعرف أن العيار العالي يكون لينًا، وله لون أصفر خاص، والعيار المنخفض يكون صلب عادة وله لون يميل إلى الحمرة، أو أصفر فاتح جدًا، أي لون خاص الصائغ يعرفه، وإذا أراد التأكد فعليه أن يفحص حسب وسيلة الفحص المتوفرة لديه، وأبسطها أن يبرد بالمبرد جزء بسيط من الحلية ويضع قطرة من مادة التيزاب،

ويلاحظ إن بقي على لونه فهذا عيار عالي، وإن تغير اللون إلى أحمر فاتح فهذا أقل نقاوة، وإذا كان أحمر غامقًا فهذا يعني نقاوة قليلة، وإذا تحول إلى اللون الأسود فهذا عيار ١٢ مثلاً، وإذا أخضر فهو دون ذلك، وهكذا...

وهناك فحص أسهل يسمونه باستخدام محلول المزدوج، وهو خليط من نسبة واحدة من حامض الكلوريك وثلاث نسب من التيزاب (حامض النتريك)، ولغرض الفحص تستخدم الحجر الأسود، وهو حجر خاص بأن تحك قطعة ذهب معروفة العيار، كأن تكون الحلقة التي بيدك، وتحك بجانبها قطعة الحلية المراد فحصها، ثم تضيف قطرة من محلول المزدوج عليهما، وتلاحظ بالنظر وبالمقارنة بين الاثنين، فإن بقي الأثرين على الحجر الأسود كما هما، فهما متشابهان في المعيار، وإن خف لون الحلية على الحجر فهذا يعني أن الحلية أقل عيارًا وهكذا.

كان الصاغة أيام زمان؛ العمل يدوي من بدايته إلى نهايته، فلغرض سباكة الذهب يستخدم الكورة والفحم والمنفاخ اليدوي وهذا يأخذ منه وقتًا وجهدًا، ثم تطور إلى استخدام العفريت وهو بريمز خاص يعمل على النفط، ثم تطورت الأمور إلى الأفران الكهربائية الحديثة.

وأيام زمان الصائغ يمسك السبيكة وقد تكون صغيرة بحجم نواة التمر، وباستخدام المطرقة والسندان يعمل منها صفيحة رقيقة جدًا، أو سلكًا ناعمًا دقيقًا ثم تطورت الأمور ودخلت التكنولوجيا من أوسع أبوابها، وأصبح من السهل على الصائغ أن يعمل بالسبيكة أي شيء يريده بيسر وسهولة ودون خسارة تذكر بوزن السبيكة.

حتى التلميع والصقل تحول من عمل يدوي متعب باستخدام أنواع متعددة من المبارد، وأنواع متعددة من ورق الصقل يسمونه (كاغد سنباده) إلى استخدام أجهزة حديثة متطورة يسمونها (اللاشة)، وهي جهاز هزاز يوضع بداخله نوع من الصحجم (البلية) الكروي أو الاسطواني الناعم، ويضاف شامبوات خاصة

(مواد كيمياوية) ، وبعد وقت قليل تصقل الحلي وتمنح رونقًا ولمعانًا يصعب على العمل اليدوي مجاراته.

أما عن فن اللحام فلا يعتبر صائغًا إذ لا يجيد فن اللحام، وقد تطور هذا الفن كثيرًا ، فسابقًا كان الصاغة يعملون اللحام كسبيكة خاصة يضيفون لها بعض المعادن، مثل الفضة والنحاس والكادميوم بنسب معينة مع المحافظة على عيار الذهب، لتذوب أسرع من الذهب التي تشكل منه الحلية، إذا وجهت النار لها.

ويستخدمون وسائل مساعدة لذوبان قطعة اللحام مثل (البورك) ، وجهاز اللحام كان أيام زمان يشبه الفانوس السحري، وبه فتيلة من القطن، وفي داخله النفط، وباستخدام بوري رفيع للنفخ يوجهون النار على قطعة اللحام لتذويبها ، تطور الأمر إلى جهاز يعمل بالبنزين ثم بالغاز ، وحاليًا تطور الأمر كثيرًا فأصبح اللحام عبارة عن عصارة والجهاز بحجم تورش الإنارة متوسط الحجم اليدوي.

كل شيء تطور فماكينة تعمل الزناجيل بأنواعها دون جهد ، إذا كان على الصائغ أن يجهز آلاف الحلقات الناعمة الدقيقة، وأن يلضمها واحدة بالأخرى، وأن يلحم كل الفتحات وهذا أمر غاية في الصعوبة والتعقيد.

كذلك استحدث فن القوالب والبريسات ، ومعامل السباكة وكثر مهرة تركيب الأحجار الكريمة والألماس، وأبدعوا في مجال عملهم، والصائغ يجب أن يكون أمين وصادق في عمله ، وفي تعامله ، لأنه مثل البنك. والصابئة المندائيون مشهورون بالصدق والأمانة، ولكن لكل قاعدة شواذ، والذي يشذ عن القاعدة لا أحد يتعامل معه، ويسمونه فلان الغشاش، ولكون أبناء الطائفة أعدادهم قليلة، وتربطهم علاقات قرابة ونسب ، فمثل هذا النوع يُفضح أمره بين الآخرين ويصبح من الصعوبة أن يعمل في هذا المجال، لأن مجتمعهم يلفظه، ولا أحد يقربه أو يتعامل معه ، فتجد الجميع حذرين ويسمعون النصيحة ، وأهلهم يعلموهم منذ نعومة أظفارهم على احترام هذه المهنة العزيزة ، والصابئة

المندائيون لا يبخلون على بعضهم بتداول المعلومات عن هذا الفن الرفيع، ولا يكتمون أسراره فيما بينهم، ويساعدون بعضهم بعضًا.

وهناك عدد من الصاغة متخصصون في فن تصفية الذهب ، أي نقاوته ، فالصائغ صاحب المحل أو الورشة، يتجمع لديه أنواع مختلفة من العيارات من الذهب ، فيطلب الأمر توحيدها وتنقيتها ليتمكن من إعادة ضبط عيارها ، فيرسلها إلى معمل تصفية الذهب ليعيد نقاوتها ، وهذا بدوره يسبكها سبكًا جيدًا ويخلط معها كمية من الفضة ، وباستخدام حامض النتريك ومصدر حراري لثلاث مرات أو أربعة ؛ يتبخر النحاس وتترسب الفضة ويستخلص الذهب العالي العيار.

ومعظم الذين يعملون في هذا الاختصاص لديهم مشاكل في الجهاز التنفسي ، لأن بعضهم لا يهتم بوسائل التهوية ، طبعًا تغير الحال وتطور العمل وأصبح أكثر دقة ، ولغرض التأكد من عيار الذهب بشكل دقيق جدًا ؛ ترسل الحلي إلى جهاز التقييس والسيطرة النوعية ، وهناك تؤخذ عينة أو أكثر لا على التعيين ، ويقطع منها مائة ملجم وتجرى لها عملية تصحيح كيمياوي يتحصلون منها على الذهب الخالص ، فيعرفون النسبة الحقيقية لهذه الحلي ويوسمونها بختم خاص بالمؤسسة، لا يجوز التلاعب بها مطلقًا.

والذي يهمنا في هذا البحث بعد أن أخذنا فكرة بسيطة عن هذا الفن الرفيع، ماذا استفاد الصابئة المندائيون من هذه الحرفة ؟ ، لقد استفادوا كثيرًا ، فالوضع الاجتماعي والحالة الاقتصادية تطورت كثيرًا وأصبحوا من علية القوم في المجتمع، لهم احترامهم وتقديرهم، ينظر لهم الآخرين بثقة في الصدق والأمانة، ويتمنون صداقتهم والتقرب منهم ، لأنهم يحتاجونهم في زواج أولادهم أو لإرضاء زوجاتهم، والعوائل تتباهى أن صائغهم فلان وأنهم يشترون الحلي من المحل الفلاني المعروف.

وكما يقول أهلنا الخير يخير والشر يغير، ويقصدون هنا بالشر (الفقر)، فتجد العائلة المقتدرة المتمكنة الكل يقربها ويحبها، ويريد معرفتها عسى أن يصيبها شيء من هذا الخير، أما العائلة الفقيرة فيعتقدون أنها تحسدهم لأن نفوسها تغيرت بسبب العوز والفقر.

أما من الناحية الأخرى؛ فالصاغة المقتدرون ساهموا في تطور المجتمع المندائي وفي تقديم المساعدات المادية والدعم المعنوي لمؤسسات الطائفة، وفتحوا العديد من الورش والمعامل لتشغيل أبنائهم وأقربائهم، وعدد كبير من أبناء الطائفة.

ولهذا لا تجد إلا نادرًا أحد أبناء الصابئة المندائيين بدون عمل، فإما يشغلونه في ورشة أو بائع أو دوار، يعطوه كمية من الذهب لتصريفها وله نسبة معينة لأن هناك صاغة جُملة وصاغة مفرد، وصائغ الجملة يوزع إنتاجه على صاغة المفرد، إما مباشرة أو بواسطة الوسطاء (الدوارة).

والغريب بالأمر تجد الكثير من الموظفين في الدولة عندما تكون رواتبهم غير مجزية، إما يعمل وسيط بعد ساعات الدوام، والأغلب يترك الوظيفة ويمارس هذا العمل لأنه يدر عليه أرباحًا مجزية... فأصبح الذين يتعاملون بالذهب وصناعته مركزًا اجتماعيًا محترمًا، وبحكم عملهم هذا فهم يتعرفون على النخبة في المجتمع، وبذلك يسهلون أعمالهم ومتطلباتهم، كما يسهلون ما يحتاجه غيرهم من أبناء الطائفة، مثلاً الواسطة لقضاء مهمة أو تعيين أو إنجاز معاملة أو غير ذلك.

تاريخ الصياغة عند الصابئة المندائيين :

استعمل البابليون والآشوريون المعادن المختلفة والثمينة منها، على الأخص الذهب والفضة في صياغة القلائد والأساور والأقراط والخواتم المرصعة بالأحجار الكريمة وتطريز الملابس بالذهب، ولا سيما بالنسبة للملوك كما ذكر

فؤاد ناجي آل زهرون في مقال له... وكان فن الصياغة في تلك العهود يحتوي على مضامين هي في الغالب دينية وأسطورية، وقد أثرت هذه الفنون بالمناطق المحصورة حيث نقل الإغريق والساسانيون الكثير من معالم فن الصياغة البابلي والآشوري...

كان الصاغة يقومون بتزيين تماثيل الإله في المعبد، وهناك من الآثار التي تضمها المتاحف دليل على الإبداع الفني، وما آثار المقبرة الملكية في أور إلا نموذج حي لما وصل إليه فن الصياغة من رفعة ورقي، وقد سبق الآشوريون البابليين في فن الصياغة بأشواط بعيدة، ونلاحظ أن هناك نماذج عديدة من الأساور والقلائد والأقراط والخواتم، وكانت مضامين هذه الصياغة مطبوعة بالطابع الديني والرمزية.

يرجع تاريخ مهنة الصياغة لدى طائفة الصابئة المندائيين في العراق إلى بدايات القرن التاسع عشر الميلادي على يد خضر بن بدران بن قاجار آل زهرون، الذي كان قد تعلم صناعتها عن طريق عائلته.

وبعد وباء الطاعون الذي اجتاح العراق عام ١٨٣١ والذي أدى إلى وفاة كثير من الناس ومنهم أبناء طائفتنا المندائية، وعدد كبير أيضًا من رجال الدين المندائي، انتقل خضر بن بدران من مدينة البصرة إلى مدينة العمارة، كان هذا الرجل تقيًا ورعًا متبصرًا بأمور الدين المندائي، لذلك بدأ بتعليم ابن عمه (عوض) أصول الديانة المندائية لكي يساعده في إجراء الطقوس والمراسيم الدينية، وذاعت سيرته فأطلق عليه وجهاء المدينة (الملا خضر).

وبعد استقراره في مدينة العمارة، ولكونه يتقن مهنة الصياغة؛ قام بافتتاح محل لمزاولة هذه المهنة، وكان يساعده الملا عوض ابن عمه بعد أن تتلمذ على يد الملا خضر، وبذلك يمكن القول إنه كان أول محل أو صائغ زاول مهنة الصياغة في تاريخ طائفتنا المندائية في العراق، ثم بدأ بعد ذلك بتعليم أولاد هرمز... زهرون ورشيد أصول هذه المهنة.

ومن خلال احتكاكه مع بعض الصاغة الأرمن؛ استطاع أن يتعرف منهم على كيفية عمل (المينا السوداء)، والتي تسمى عند عموم الصاغة بـــ(المحرك)، وهي خليط من نسب معينة من الفضة والرصاص والكبريت، تتحول بعد سبكها إلى قطع مستطيلة لونها يميل إلى اللون الرصاصي القاتم، وتطحن بعد ذلك لتكون جاهزة لاستعمالها على المصوغات الفضية المنقوشة.

أعطت المينا السوداء جمالية مذهلة إلى فن الصياغة؛ بحيث كانت القطع المكسوة بالمحرك تعتبر إحدى روائع الفنون الشعبية في العراق، وقد توفي الفنان ملا خضر في مدينة العمارة في بدايات القرن العشرين وكان هرمز ابن الملا خضر قد عزم على السفر إلى بغداد.

وبعد الحرب العالمية الأولى بدأت بغداد تتطور وتزدهر بالأعمال التجارية والسياحية، وكانت محلات الصياغة يتمركز معظمها في شارع الحكومة العثمانية (سابقاً)، القشلة، وقد عمل هناك فترة قصيرة من الزمن، انتقل بعدها إلى شارع المستنصر (النهر) سنة ١٩٢٠، ليكون أول صائغ مندائي يفتتح محلاً في هذا الشارع.

ومع مرور الوقت أخذ شارع النهر يتطور أيضًا ويصبح مركزًا تجاريًا مهمًا، واختفت كثير من البيوت والخانات لتحل محلها المصارف والمحلات التجارية والشركات الأجنبية، وضمن هذا الانفتاح الحضاري أصبح لصياغة المينا السوداء أهمية لدى الجاليات الأجنبية والسواح الذين بدأوا يتوافدون على بغداد في تلك السنين.

وعلى إثر الإقبال الكبير على اقتناء هذه المصوغات الفضية، فقد برزت الحاجة إلى ضرورة تواجد صاغة آخرين إلى جانب آل زهرون، فقد بدأ عدد منهم الانتقال إلى بغداد من أماكن تواجدهم في البصرة والعمارة ليشكلوا الرعيل الأول لمجموعة الصاغة المندائية في بغداد.

ومع مرور الزمن فقد أصبح شارع النهر يعج بمحلات الصاغة على جانبيه، وصارت هذه الحرفة الفنية الجميلة والتي أدخل عليها الصاغة المندائيون مسحة فنية متميزة بفضل ذكائهم ومهاراتهم الفائقة المهنة الرئيسية لطائفتنا المندائية بعد أن كانت حرفهم السابقة هي النجارة والحدادة.

ونود أن نذكر بعض أسماء الصاغة الأوائل في شارع النهر من ١٩٢٠ إلى عام ١٩٤٠: (شذر النشمي- عمارة مران وابنه عباس- شيخ عنيسي الفياض- مجيد عذاب- ضامن حويزاوي- اسمر هرمز- آدم وناصر سفر- سعد رهيف- جليل مجدي- صالح حاجم- شاطي حاجم- جودة سهر- جاني سهر- شدود نعاس- توفيق بقال- سكران هرمز- ناشور الخدادي- محسن قطان- رحيم صادق- فاضل سيف- زهرون سيف- ياسر صكر- ناصر صكر- رحيم برغوث- سالم شهيب- غدير باحور- إبراهيم وهام- خضر كيطان)، وجاء بعدهم في الخمسينات والستينات مجموعة من الصاغة الذين أكملوا المسيرة المهنية بعد أن رحل معظم الأوائل، وقد ظهر في البصرة بعد الحرب العالمية الثانية صاغة فضة في منتهى الدقة والمهارة، أذكر منهم بيت سيف مناحي، وبيت يوسف بخيتان وأولاده عبد الواحد وزهرون، وبيت حميد سرحان وإخوته وعبد الواحد يوسف وكثيرون غيرهم كذلك في العمارة بيت حسني زهرون.

كان المستشرق الأب أنستاس الكرملي من أصدقاء هرمز آل زهرون، وذات يوم رآه يعمل في المينا السوداء، فأخذ يسأل عن مكوناتها، متعجبًا من صنعها بهذه الطريقة، وفي إحدى سفراته إلى فرنسا جلب هدية إلى الصائغ هرمز؛ هي عبارة عن فرن يعمل بالفحم وقطع زجاجية ملونة (المينا الملونة بعد طحنها)، ليصبح هرمز آل زهرون أول صائغ يستخدم المينا الملونة.

الصائغ ناجي آل زهرون الذي جاء بعده صمم مكبسًا يعمل بالرجل لطبع القطع الذهبية والفضية على القوالب الحديدية المنحوتة، وقد لقيت أعمال الصياغة

شهرة واسعة وخاصة أعمال آل زهرون في المجتمع العراقي ومجتمعات الدول المجاورة، وبعض الدول الأوروبية وذلك من خلال اشتراكهم في المعارض العالمية والمحلية، ومنذ بدايتها أخذت حرفة الصياغة لدى أبناء طائفتنا المندائية تتطور وتتوسع وتتوطد لتصبح صفة تاريخية تلتصق بطائفتنا على مر السنين.

المندائيون وصياغة الفضة في العراق :

كما ذكر صباح مال الله في إحدى مقالاته كون المتحف البريطاني في لندن يزخر بالآثار التي لا تقدر بثمن، والتي تعكس حضارة الشعوب التي جلبت منها هذه الآثار، ومن جملة هذه الآثار مصوغات فضية من مناطق إيران والعراق والشرق الأوسط قسم منها موشح بالمينا السوداء، وتعود إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد.

وتعتبر الحلي من أول منتجات الإنسان الفنية التي كان لها دور بارز في العصور القديمة في توضيح الأهمية الجمالية والسحرية للمعتقدات والتعريف بأذواق وعادات وتقاليد المجتمعات، وتميزت بتنوع نماذجها الوظيفية والجمالية التي لا يزال قسم كبير منها مستعملاً حتى الآن.

وقد اشتهرت صناعة الفضة في العراق القديم، وكانت الفضة تدعى (كسبا)، وكلمة كسبا كلمة مندائية آرامية قديمة ارتبطت بالذهب (دهبا)، فالذهب والفضة (الدهبا والكسبا) كانا عماد الاقتصاد العراقي منذ القدم، إضافة إلى استخدامهما في الحلي والمصوغات، فذهبا بذلك مثلاً لدى العراقيين إلى يومنا هذا (الذهب والفضة زينة وخزينة)، وقد برع المندائيون بفن صياغة الفضة والنقش عليها بشكل أثار دهشة المهتمين، وأصبحت مصنوعاتهم قطعًا فنية فريدة يقتنيها هواة جمع التحف النادرة في كل أنحاء العالم.

لقد توارث المندائيون هذا النوع من الفنون منذ أقدم العصور، منذ أول تواجدهم على أرض الرافدين، لقد تمثلت الحلي التي صنعها العراقيون في وصف الشاعر البابلي القديم لبعض منها بقوله:

أمي هي نور الأفق الشديد الإضاءة
إنها وعلة الجبال
نجمة الصباح التي تتألق
إنها ينع ثمين إنها زبرجد ماراهاشي [1]
إنها حلي العقيق التي تحمل البهجة
وخاتم الذهب وسوار الفضة
إنها تمثال كامل الجمال، كامل البهاء
إنها ملاك رخامي على قاعدة من اللازورد

لقد صنف العراقيون القدامى الصياغة والمهن المرتبطة بها، فملحمة جلجامش تعطينا فكرة واضحة عن هذه الحرفة وأهميتها في العراق القديم منذ أكثر من ستة آلاف عام، لقد كان في ذلك الزمن الموغل في القدم أنواع من الصاغة، فهناك صبابوا المعادن وشاغلوا الأحجار الكريمة وشاغلوا المعادن وصاغة الفضة والذهب، وصانعوا المجوهرات.

فبعد موت انكيدو يأمر جلجامش مختلف صناع المعادن الثمينة والأحجار الكريمة بصنع تمثال لصاحبه، كما يتضح في المقطع التالي من الملحمة: (جلجامش يأمر بصنع تمثال لأنكيدو – عندما سطع فجر اليوم التالي عمم جلجامش نداء في كامل البلاد صبابو المعادن – شاغلو الأحجار الكريمة –

١- الينع هو العقيق الأحمر، الزبرجد هو الياقوت الأصفر، وماراهاشي منطقة من بلاد عيلام إلى الشرق من سوز.

شاغلو المعادن، الصاغة وصانعو المجوهرات[1]، اعملوا لصديقي انكيدو تمثالاً يتناسب وقياسه، على أن يكون صدره مرصعًا باللازورد ومن الذهب بقية جسمه).

إن صياغة الفضة تستدعي من الصائغ حذق خاص وحرفية عالية ومعرفة تامة بمزايا وطباع المعدن، فبعد سباكة وصهر الفضة تحول أولاً إلى صانع مختص يدعى (الجمّاع) وهو المختص بالجمع والتصفيح، والتصفيح هو تحويل سبائك الفضة إلى صفائح مسطحة تأخذ السمك المرغوب فيه بغية تقطيعها للحصول على الهيئة المطلوبة... وبهذه التقنية تصنع الدلال والفناجين والطوس والأواني وعدد الحلاقة والصواني وعلب السجائر والسيوف والخناجر وغيرها، ويتم ذلك بطرق صفيحة الفضة يدويًا بشكل متناسق على سندان حديدي حتى الوصول إلى الشكل المطلوب.

وتسخين الفضة يعد أمرًا ضروريًا لتلافي التشقق الذي قد يحصل للصفيحة، وعلى الصائغ معرفة درجة الحرارة اللازمة للتسخين، فلا يتجاوزها كيلا تنصهر الفضة، إن عملية التصفيح (الجمع) عملية مرهقة ومعقدة وتحتاج إلى زمن طويل، فيختص بها نفر من الصاغة، ويستعين الجمّاع في عمله لتجسيم المصوغة بأنواع متعددة ومختلفة من السنادين والمطارق والقوالب.

وبعد أن ينتهي الجمّاع من بناء النموذج تأتي عملية (البرد) التي تسبق النقش والحفر، ويقوم النقاش برسم اللوحة ونقشها وحفرها على قطعة الفضة باستخدام (أقلام) حديدية مثلثة، بعد إسنادها إما على إحدى ركبتيه أو على مسند خشبي خاص يسمى (الغزال).

وبعد الحفر والنقش توشح اللوحة بالمينا السوداء وهي عملية ملء الفراغات الناجمة عن الحفر والحز بمسحوق هو خليط من الفضة والنحاس والرصاص

١- الصائغ في السومرية : كو ديم، وفي البابلية الآرامية المندائية قناي كسبا : صائغ الفضة وفي الفدائيةة تستخدم كلمة خشلاي أو هشلاي من خشل أو هشل بمعنى مصاغ أي مخشلات، والهاشل : هو الصائغ.

والكبريت بنسب مدروسة ، ومن ثم تعرض القطعة لحرارة معينة تذيب هذا الخليط الذي يصبح فيما بعد وحدة متكاملة ذات جمالية وإبداع مميز ، ثم تخضع القطعة الفضية الموشحة بالمينا إلى عملية برد دقيقة بمبارد خاصة ، ثم بورق الصنفرة (كاغد سمبادة) إلى أن تظهر معالم اللوحة كاملة ، ثم تصقل يدويًا بمواد صقل خاصة إلى أن تصبح لماعة تأخذ بالأبصار.

استخدم هذا النمط الجمالي الفنانون ومهرة الصناع في العصرين الساساني والبيزنطي ، وامتد الأخذ بتلك التقاليد الصياغية عبر أوروبا في العصور الوسطى ، وبالرغم من العزوف عنها في أوروبا في عصور لاحقة إلا أنها ظهرت في مناطق أسيوية امتدت من أسيا الصغرى وتوغلت لتبلغ مناطق في جنوب شرقي آسيا.

وبعد اجتياح المغول للعالم الإسلامي هاجر الصناع المهرة من المدن العراقية والإيرانية إلى بقاع مختلفة أخصها الأناضول والقوقاز وآسيا الوسطى ، حيث استمر الأخذ بتلك التقاليد وتوارثها الفنانون جيلاً عن آخر ، بحيث وجدت أشكال متشابهة تبلغ حد التطابق لهذه التقنية في القطع المنفذة في تركيا والقوقاز والعراق وإيران ، إلا أن أشكال النقوش وأنماطها تختلف باختلاف تلك المناطق ، فالتحف العراقية المندائية المطعمة بالمينا السوداء مثلاً تتميز برسم المناظر الطبيعية أو أجزاء منها ، كالنخيل والسفن الشراعية والزوارق والجمال والصحراء ، أو مآثر من التراث كالجوامع والآثار القديمة كإيوان كسرى وأسد بابل والتي تعكس براعة الصائغ المندائي في ابتكار العلاقة المتبادلة بين اللونين الفضي والأسود بين المساحة المليئة والفارغة.

لقد وصل هذا الفن الجميل في العراق ذروته على أيدي الصاغة المندائيين في الفترة ما بين الحربين الأولى والثانية ، فأبدعوا في تطعيم الفضة بالمينا السوداء واشتهر بينهم الصائغ زهرون ملا خضر ونفر من عائلته ، مثل الصائغ المشهور حسني زهرون الذي أبدع في رسم صور (البورتريت) للأشخاص ،

كما برع آخرون في هذا المجال؛ منهم عباس عمارة والشيخ عنيسي الفياض (الصائغ الخاص للملك غازي)، وخليل مال الله (أصبح صائغ البلاط في زمن الملك فيصل الثاني وما تلاه من عهود)، وياسر صكر الحيدر وجاني سهر وأحمد مجيد وصبري وعزيز عودة، وجبار خضر الخميسي وأسمر زهرون، وكثيرون غيرهم.

لقد كان المندائيون ومازالوا الصاغة الوحيدين القادرين على تنفيذ هدايا الدولة العراقية، التي تُقدَّم لملوك ورؤساء الدول الأخرى، كما قاموا ببراعتهم المعهودة بكسوة معظم قباب وأبواب وجدران المراقد المقدسة في العراق بالذهب والفضة.

لقد اهتمت معظم الدول بالصياغة قديمًا وحديثًا، فعلى سبيل المثال أولت الدولة العثمانية اهتمامًا كبيرًا بهذه الحرفة النبيلة، حيث قام السلطان سليمان القانوني بإنشاء دار كبيرة للصياغة تحوي مشاغل عديدة، وكان للصاغة في عهده عيد موسمي يفتتحه السلطان سليمان بحضور علية القوم حيث يتقدم كبار الصاغة في حفل ضخم لتقبيل يد السلطان وتقدم له الهدايا من المصوغات الذهبية.

كما نجد أن في أكثر الدول الأوروبية حاليًا معاهد وكليات متخصصة (ومنها جامعة كيلدهول في لندن)، لتعليم مهنة الصياغة بكافة أنواعها وفق الأساليب العلمية، وتمنح الخريجين شهادات عالية توازي الماجستير والدكتوراة، ولكن ما يؤسف له أن هذا الفن منذ القدم في طريقه للاندثار، إن لم يكن قد اندثر فعلاً، وذلك لعدم قيام المندائيين بتأسيس مدارس أو مشاغل يتعلم فيها أبناؤهم هذه المهنة العظيمة، كما أن الدولة العراقية لم تولِ اهتمامًا بهذا النوع من الفنون فتدخله في المناهج التدريسية لأكاديمية الفنون الجميلة مثلاً، باعتباره ركنًا أساسيًا من أركان التراث العراقي القديم والمعاصر.

أدوات الصياغة عند الصابئة المندائيين بداية ووسط القرن الماضي :

تعد الصياغة – كما ذكر بشير عامر جندال– مهنة قديمة قدم الحضارة، فقد ورد ذكر كلمة الصائغ تحت اسم (سيجوك) في الكتابات السومرية... وقد ارتبطت مهنة الصياغة بالمعدنين الثمينين، الذهب والفضة، ومعدن الكنزوم الزكي هو مزيج من الذهب والفضة والتي شاع استعمالها في عصر فجر السلالات حوالي ٣٠٠ ق.م، جاء أقدم ذكر للمشاغل الصناعية منذ عهد سلالة أور الثالثة (٢١١٢ – ٢٠٠٦ ق.م) وكانت مرتبطة بالمعبد، ومنها مشغل الصائغ والجوهري.

لقد برع الصاغة العراقيون القدماء بصناعة الحلي وأدوات الزينة من الذهب والفضة التي تملأ المتاحف وأروعها ما وصلنا من المقبرة الملكية في أور، وفي تاريخنا المعاصر ومنذ منتصف القرن العشرين؛ ارتبطت مهنة الصياغة بأبناء الصابئة المندائيين في العراق، بحيث صارت كلمة الصائغ مرادفة لكلمة الصابئي، وكلمة الصابئي مرادفة لكلمة الصائغ، لتخصص معظم أبناء الطائفة بالصياغة، بحيث طغت على باقي المهن الأخرى لأبناء الطائفة.

والصياغة مهنة تحتاج إلى الدقة في العمل، والصبر والأناة والكثير من المران والممارسة، ولكي لا ينسى الجيل الحالي والأجيال اللاحقة من أبناء الطائفة كيف كان آباؤهم وأجدادهم يصارعون المعادن بأيديهم وسط لهيب النار ودخان الفحم، والمعادن والمواد الكيمياوية وضوضاء ضرب المطارق يتصببون عرقًا، دون إنارة ملائمة أو تكييف هواء، ليصنعوا بأناملهم الخشنة أدق المصوغات وأجملها، ويحفروا عليها صورًا مأخوذة من حضارتنا كأسد بابل وطاق كسرى وملوية سامراء، ومن مناظر زالت عن الأنظار في الوقت الحاضر، كالسفن الشراعية أو المأخوذة من رمز العراق القديم والحديث، فنخلة العراق الباسقة، أو يحفروا اسمًا أو رمزًا.

وقد كان الصائغ يستخدم قبل دخول الآلة الحديثة؛ أدوات بسيطة تساعده في عمله، وحسب نوع الحاجة التي يقوم بصنعها، ومن هذه الأدوات:

١- الأصبعة: وهي شيش من الحديد يبلغ طوله حوالي ٤٠ سم، يكون أحد طرفيه رفيعًا ثم تأخذ بالسمك التدريجي إلى الطرف الآخر، وتستخدم لقياس الخواتم وحلقات الزواج أو لتعديلها.

٢- البراشنجة: وهي الماسكة التي يمسك بها الصائغ المواد الحارة أو لسحب السلك المعدني وهي على أنواع عدة، منها الكبيرة وتسمى (اللكاطة) ومنها الصغيرة ذات الفكين الرفيعين وتسمى (الجلابتين) الكلابتين.

٣- البودقة: وهي إناء مقعر يشبه الفنجان مصنوع من حجر الكرافيت المقاوم للحرارة العالية، وتستخدم البودقة لصهر المعادن، وتكون بأحجام مختلفة، كما يصنع بعضها من الحديد، وتستخدم لسبك الفضة والذهب.

٤- البوري: وهو أنبوب معدني يبلغ طوله حوالي نصف ياردة، ويبلغ قطر أحد طرفيه حوالي ١سم، وهو الطرف الذي تنفخ فيه الهواء ويكون معقوف ودقيق من الطرف الآخر، ويستخدم بعد النفخ فيه لتوجيه النار الصادرة من السراج نحو الجهة التي يريدها الصائغ، ويستخدم بشكل خاص عند لحام المعادن.

٥- الخشتك: وهو مكعب معدني يبلغ طول ضلعه حوالي ٥سم، في كل وجه من وجوهه عدة حفر بشكل نصف كروي مختلفة الأحجام، ويستخدم كقالب لصناعة القباب أو الكرات من الذهب والفضة بعد ضربها بالهابش الذي سيمر ذكره لاحقًا.

٦- الريزك: وهو قالب حديدي يبلغ طوله حوالي ٣٠سم، وقد يكون له حقل واحد أو حقلان مختلفان في العرض، يستخدم لصب صهير المعدن فيه ليتخذ الشكل الطولي، بعد تعريضه للحرارة وطلائه بالشمع لسهولة عزل المعادن عن القالب بعد تجميدها.

٧- السراج: وهو إناء معدني يتصل به أنبوب من المعدن نفسه، يوضع فيه نفط وفتيلة من القماش تمتد من الأنبوب إلى جوف الإناء، وتشعل النار إلى الطرف الخارجي من الفتيلة وتستخدم النار المنبعثة منه للحام المعادن بواسطة البوري الذي مر ذكره.

٨- السندان: وهو كتلة من الحديد الصلب يبلغ ارتفاعه حوالي ٢٥ سم، ذو طرفين مدببين يستخدم لطرق المعادن عليه بواسطة المطرقة بعد تثبيته على الفرشة بشكل محكم.

٩- الشفت: وهو ملقط صغير ذو ذراعين وطرفين مدببين يستخدم لمسك المعادن عند لحامها أو عند جليها.

١٠- الطبعة: وهي مسطرة حديدية يبلغ طولها ٢٠ سم، وسمكها حوالي ١سم، مقطوعة عرضيًا بأخاديد تحمل عدة نقشات، تظهر على السلك الذهبي أو الفضي بعد وضعه على الأخدود المعين وضربه بالمطرقة، ويستخدم لإظهار النقشات على الخواتم أو المعاضد.

١١- حديدة الجر: وهي مسطرة حديدية يبلغ طولها ٢٥ سم وسمكها ١سم، تضم عدة صنوف من الثقوب بأقطار مختلفة تستخدم للحصول على سلك معدني حسب الحاجة بعد وضعه بأحد الثقوب.